المعروف ان العرب يحق لهم الادلاء باصواتهم في اختيار ممثلين عنهم في الكنيست . وتلجأ الاحزاب الاسرائيلية المتناحرة لاساليب متعددة ، وبشعة ، للحصول على هذه الاصوات . ورغم تناحر هذه الاحزاب الا انها تتفق جميعا على الوقوف ضد حزب واحد هو حزب راكاح الذي تشكل العناصر العربية غالبية اعضائه . وتحرص دوائر هذه الاحزاب على اقناع العرب بضرورة مقاومة هذا الحزب ، والوقوف الى جانبها هي .

وهذا الموضوع ترك اثرا كبيرا في رواية اميل حبيبي المظيمة « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل » كما انه يأخذ مكانة مهمة في قصص محمد علي طه . وقصته « المعركة » تكاد تكون مخصصة لهذا الموضوع . ففيها احد العرب يقدم اعترافا امام احد القضاة الاسرائيليين حول اسباب المعركة التي وقعت بين حيين في احدى القرى العربية سببها التنافس على الولاء لاحد الاحزاب الاسرائيلية . وقد ذهبت ضحية التنافس على هذا الولاء اعداد كبيرة من الضحايا. ومع ذلك فان حارة المتهم اعطت الاصوات المطلوبة كاملة ، فما الذي تحقق لها من الوعود ؟ « فالبلدة » ما تزال كما هي . لا مجلس محلي ، ولا رئاسة ، ولم يوظف احد من اولادها في البنك .

وتقع مشكلة « الاستشهاد والقاعدة » في الخط المضموني ذاته . فهي تتألف من حوار واحد متصل يوجهه احد القرويين العرب في « اسرائيل » الى احد الخواجات اليهود بعد ان يكون هذا الخواجا قد حل ضيفا عليه بصورة مفاجئة ، ودون سابق معرفة .

وتقوم القصة على اساس المفارقة بين موقفين : موقف الفلاح العربي الذي يفاخر بمعرفته للارض، واصالة تعلقه بها ، وصحة ادراكه لطبيعتها وخصبها وما عليها وطول تجربته في الزراعة والفلاحة والتنبؤ بالمطر ، مع موقف الخواجا الصامت الاصم الذي لا يدري عما يتحدث الفلاح .

وتأخذ المقارنة بين الموقفين طابعا حادا ، حتى ليكاد القارىء يحس ان هذه القصة تشكل لائحة اتهام ضد الاسرائيليين المغتصبين كافة . وهي بالاضافة الى هذا وذاك لائحة اتهام يواجه بها الكاتب السلطة الاسرائيلية مواجهة مدمرة . انه يلخص مفهوم الحكومة عند الاسرائيليين بعبارة ذكية مختصرة : « انك لست من ضريبة الدخل ، حتما انك من دائرة الاراضي، فالخواجا لا يمكن ان يكون الا حكومة . ومن هي الحكومة ؟ ضريبة الدخل ودائرة الأراضي ، والشرطة » . (ص ٥١).

كما ان هذه القصة تسلط الاضواء على العلاقة بين اليهودي والعربي فهي من وجهة النظر الاسرائيلية علاقة غالب بمغلوب وغاضب بمغضوب « اذا لم تكن هذا ولا ذاك فمن تكون ؟ ... الانتخابات قد مرت .. وارتحنا .. فماذا تريد ؟..» (ص ٥١) . انها صورة تفضح العلاقة بين الاثنين، هذه العلاقة القائمة على الاستخفاف بالعربي ، واستغلاله سياسيا ابشع استغلال . ولطالما حاولت الدعاية الصهيونية تزيينها ، وطمس حقيقتها ، وقد جاء محمد علي طه ليكشف عنها الغبار ، ويضعها في دائرة الضوء .

وتستمر المقارنة في النمو من خلال المقارنة بين مشاعر الانسان الفلسطيني النبيل المتعلق بالارض والاسرائيلي الاصم الذي لا ينطق بكلمة واحدة الا اذا كانت « لمصلحة » ومع ذلك فان هطول المطر ، واحساس الفلسطيني بالفرح الريفي ، ينسيه كل هذا الفارق بينه وبين الخواجا ، فيعده ضيفا عزيزا « تذبح له دجاجة الدار الوحيدة » .

بجانب الموضوعات الاجتماعية التي تلح على محمد علي طه هناك موضوع اخر فرض حضوره القوي على قصصه واقصد موضوع المقاومة . ولعل القصة الاولى بين قصصه التي كرسها لهذا الموضوع هي « حكاية ابريق الزيت » ولا يخفى ما لهذا العنوان من دلالة ايجابية ، فهو رمز شعبي للتكرار الذي لا نهاية له . واما الشيء الذي يتكرر الى ما لا نهاية فهو المقاومة ، والانخراط في صفوف الثورة . فحكاية « سامي عيد » احد عرب المناطق المحتلة الذي انخرط في صفوف الثورة هي حكاية مكررة مثل حكاية ابريق الزيت . ويتخذ الكاتب من مشاعر الدهشة لدى عرب المناطق المحتلة عادة يغتني بها سرده القصصي . فكلهم يستغربون ان ينخرط سامي مع الفدائيين . وهو امر يدب في نفوسهم الذعر والقلق طالما ان قريتهم الفلسطينية تتعرض لما تتعرض له من اضطهاد وقمع دون ان يقوموا بعمل معاد للسلطة . فما